

هو السباع

بقصر الحمراء بقرطبة

دكتور جمال محرز

هو السباع أحد أبهاء قصر الحمراء القائم فوق جبل السيكة مشرفاً على مدينة قرطبة ، اكتسب اسمه من تلك النافورة بوسط فناء هذا البهو ، وذاع صيته بسببها وطبقت شهرته الآفاق .

وهو آية من آيات العمارة الإسلامية ، والواقع أن قصر الحمراء جميعه من أجمل الآثار الإسلامية ليس في الأندلس فحسب بل وفي العالم الإسلامي أجمع ولقد شاءت الظروف أن يظل هذا القصر سليماً لم يلحقه التدمير الذي أصاب العمار الإسلامية بالأندلس عقب استرداد المدن الأندلسية ، ويرجع الفضل في ذلك إلى اتخاذ مسكناً للملكين الكاثولائيكيين فرناندو وإيزابلا عقب سقوط قرطبة عام ١٤٩٢ في يدهما .

والحق أن الزائر لهذا البهو ليأخذ العجب ويحار في أمره فبأي شيء يعجب ، أفبعسن التخطيط وتنسيقه أم برشاقة الأعمدة والعقود المقرصة كأنها خلايا النحل أم بفن الزخارف وفرتها وتنوعها وكأنها الدتلا فالواقع أن المشاهد لهذا كله تكاد روعة المنظر تملك عليه أنفاسه .

ويحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا البهو أن نذكر كلمة عن تاريخه وما أصابه به الزمن وما حدث له من إصلاحات وترميمات .

ولعل أقدم إشارة وصلت إلينا عن هذا البهو هو ذلك الوصف الذي يرجع إلى عام ١٥٠٢م أي بعد أربع سنوات من سقوط قرطبة في أيدي الأسبان وقد ورد في هذه الإشارة أن أرضية الفناء كانت مغطاة برخام وأنه كان به أشجار من أشجار البرتقال وأن الأروقة كانت مكسوة بالرخام أيضاً ، كما تذكر أن عدد الأعمدة ٢٥٠ عموداً .

وتدل وثيقة موجودة في أرشيف قصر الحمراء ترجع إلى عام ١٥٥٢م على أن القباب الخارجية التي كانت تغطي الكشكين قد هدمتا وقاية للقباب الداخلية من التلف وحماية لها من الدمار كما تذكر الوثيقة أيضاً أن السقف قد أصلح ونزع الحائر القديم (الررف) وذلك عند إصلاح الجص .

هذا وقد أصاب قصر الحمراء تاف كبير عام ١٩٥١م وبخاصة القاعة الملاصقة لهو الرياحين أو البركة كما يسمى أحياناً وكذلك قاعة بنى سراج نتيجة حريق من انفجار ذخيرة .

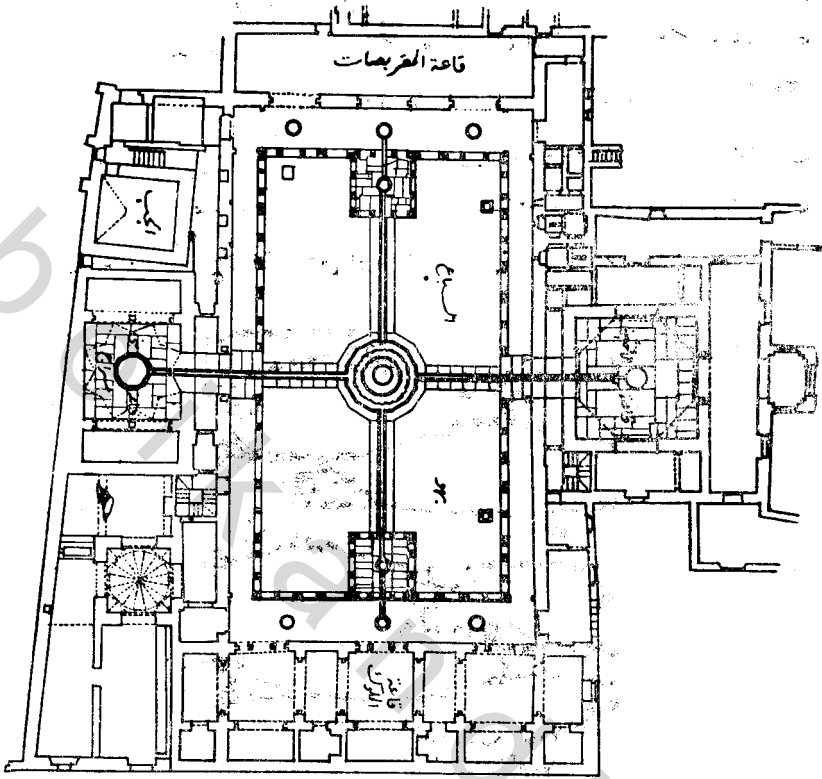
وقد تناولت يد الإصلاح هذا البهو عام ١٥٩٥م واستمرت حتى عام ١٦٦١م فغطيت قباب كثيرة وأصلح القرميد الأبيض اللون والأخضر الذى كان لا يزال يغطيها . كما نزع أرضية قديمة بداخل وخارج المر مكونة من قطع صغيرة من الحجر والزليج وكذلك أصلح الجص .

والظاهر أن الرخام الذى كان يكسو الأرضية قد نزع فى القرن السابع عشر الميلادى ويستدل على ذلك من إشارة ترجع إلى عام ١٦٤٠م . إذ تقول إن فسيفساء البهو كلها قد نزع وأجريت إصلاحات متعددة بهذا البهو خلال عام ١٧٠٨م ، ١٨٣٨م ، ١٨٧٨م ، غير أن إصلاحات العام الأخير بالرغم من كثرتها جاءت ثقيلة الظل بغضه إلى النفس رديئة الصنع الأمر الذى أدى إلى تشويه الأصل تشويهاً كبيراً .

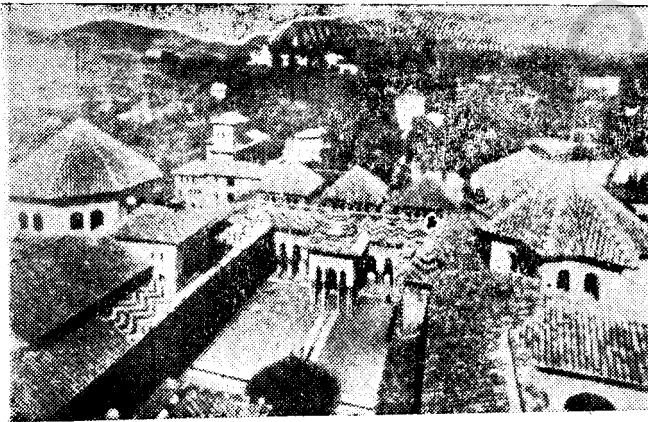
وفى عام ١٩٢٩م نزع الملاط الذى يغطى جدران الممرات فظهرت الرسوم المتهتلة البعيدة عن الأصل التى قام بعملها مرمرى القرن السادس كما ظهرت أيضاً أجزاء من الشريط الجصى القديم المكون من دوائر ومربعات بها كتابات نسخية كان فى مكان السفلى المصنوع من الزليج . كما فتحت النوافذ التى تضىء الممرات وكانت قد سدت خلال الأعمال التى تمت عام ١٧٠٨م ، وأعيد تغطية أرضية الممرات بالرخام على النحو الذى كانت عليه فى عام ١٥٠٢م . وفى عام ١٩٣٤م نزع القبة ذات القرميد المزجج التى بنيت عام ١٨٥٩م وحل محلها غطاء هرمى الشكل .

وزائر هذا البهو يصل إليه من باب صغير مفتوح فى الجدار الفاصل بينه وبين بهو الرياحين أو البركة الذى كان المقر الرسمى لسلطين بنى الأحمر حيث كانت تقام حفلات الاستقبال فى قاعة السفراء ببرج قمارش المطل على الفناء المحتوى على بركة مستطيلة محاطة بشجر الرمان .

وبعبور هذا الباب نجد أمامنا بهو السباع وهو القصر الخاص بسكنى السلطين شيهه السلطان محمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٥٨م ، ١٣٦١ - ١٣٩١م) كما تدل على



شكل ٦ — تخطيط بهو السباع



شكل ٧ — بهو السباع [منظر مأخوذ من فوق قصر شارل الخامس]

ذلك النقوش الكتابية التي تزين الجدران . وهو عبارة عن فناء يحيط به عمر ومن خلف القاعات والحجرات . شكل ١ ، شكل ٢ . أما الفناء فمستطيل الشكل تبلغ أبعاده ١٢٦ × ٧٣ × ٢٢,٥ قدماً وتتوسطه تلك النافورة التي طبقت شهرتها الآفاق ألا وهي نافورة السباع ، وهذه النافورة (شكل ٣) عبارة عن قصعة كبيرة من الرخام قطرها ١٠,٥ قدماً وعمقها قدمان ويدور حول حافتها العليا من الخارج نقش عربي عبارة عن أبيات من الشعر من قول ابن زمرك الشاعر الوزير فيقول :



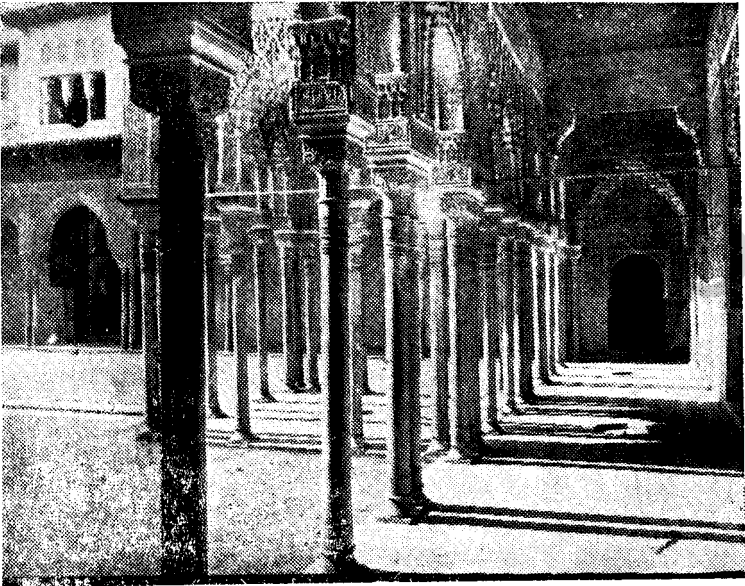
شكل ٣ — جزء من نافورة بهو السباع

مغاني زانت بالجمال المغانيا	تبارك من أعطى الإمام محمداً
أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا	وإلا فهذا الروض فيه بدائع
تحلى بمرفض الجمان النواعيا	ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها
غدامثلها في الحسن أبيض صافيا	يذوب لجين سال من جواهر
فلم ندر أياً منهما كان جاريا	تشابه جار للعيون بجامد
ولكنها مدت عليه المهاجريا	ألم تر أن الماء يجري بصفحا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغض ذاك الدمع إذخاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ عدت تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهى روابض عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلاله تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فأسلم مخلصاً تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ويحمل هذه القصعة إثنا عشر أسداً ارتفاع كل واحد منها ٣,٥ قدماً تجميع الماء من أفواهاها حيث تنساب في قنوات تصل إلى نافورتين إحداها بغرفة ابن سراج والأخرى بغرفة الأختين كما تصل أيضاً إلى نافورتين أسفل الكشكين بكل كشك نافورة وهى من الرخام أيضاً .

ويصل الماء إلى قصر الحمراء من نهر حدرة وهو عمل هندسى رائع يدل على براعة المهندسين المسلمين إذ استطاعوا أن يرفعوا الماء من أسفل الجبل إلى قمته فأحالوا تلك المنطقة إلى جنة خضراء وارفة الظلال .



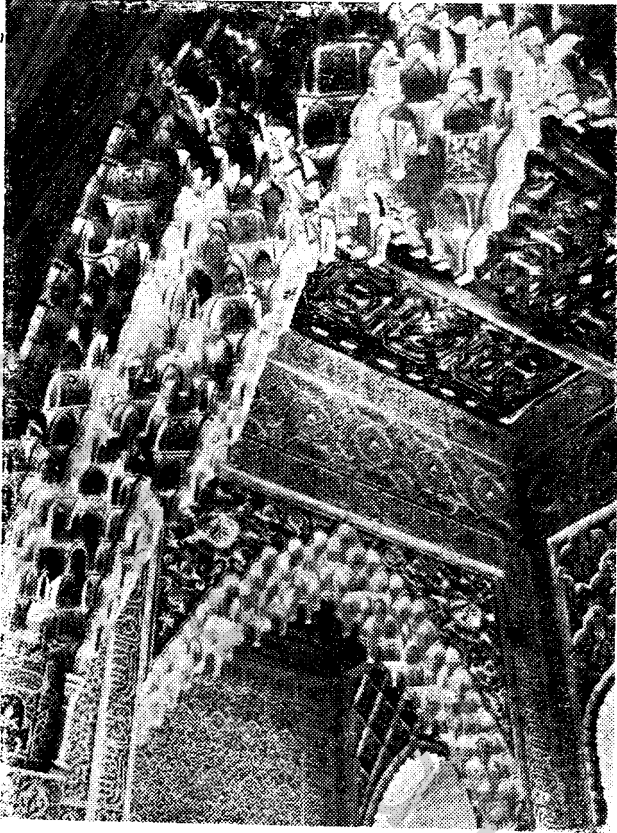
شكل ٤ - بهو السباع وواجهة حجرة مبنى سراج ومن فوقها غرف السكن

ويحيط بالبناء أعمدة تبلغ ١٢٤ عموداً موزعة حوله فرادى أو مشى أو ثلاث أو رباع (شكل ٤) وهى من الرخام الأبيض الوارد من إقليم المرية ويبلغ طول العمود الواحد ١٠ أقدام وتماز برشاقتها وأن لها حلقات بالقرب من تيجانها المخروطية الشكل من أسفل والمكعبة من أعلا ، وزخارفها جامدة بالقياس إلى باقى أجزاء الحمراء ونقرأ أحياناً فوق تيجانها عبارة « ولا غالب إلا الله » شعار بنى الأحمر الذى تجده فى مختلف أنحاء القصر ويحتمل أن أصل هذا التاج من شمال أفريقية حيث نجد ما يماثل صفاته الأساسية فى عمائر عصر الموحدين . ويعلو التيجان طبلية من رخام أبيض تقوم بمثابة قاعدة للدعامة من الطوب تستخدم مسنداً للأربطة الخشبية الأفقية التى تربط الأعمدة بعضها إلى بعض . وتغطى هذه الأربطة بالحص والإسكابولا بحيث تكتسب شكل العقد المفصص إلا فى طرفى الضلعين الطويلين والكشكين حيث تحل المقربصات محل العقد المفصص ، وما أكسب هذا البهو أصالة استخدام الأعمدة محل الأكتاف فى حمل العقود وهى هنا غير متساوية فيما بينها مما يضيف صفة التنوع لأشكالها فمثلاً نجد بمنتصف كل من الضلعين الكبيرين عقداً كبيراً مستديراً أما باقى العقود فهى دائرية مفصصة غنية بزخارفها الجصية (شكل ٥) .

ومن صفات الأصالة أيضاً بهذا الفناء بروز كشكين بالضلعين إلى الفناء كشك بكل ضلع . ارتفاع الواحد منهما ٢٩ قدماً ويتكون من ١٢ عقداً من المقربصات يحملها ٢٠ عموداً ذوات تيجان مزينة بنقوش كتابية ومزخرفة بالحص المخرم كأنه الدتلا . وقبة الكشك نصف كروية ومزخرفة بمشابك من مجوم وأشكال متعددة الأضلاع بشكل يدل على بلوغ النجارين الغرناطينيين القمة فى الإتقان ويذكر أحد الأساتذة الأسباب أن ثمة شرفات كانت لهذين الكشكين تشابه شرفات جامع السلطان حسن بالقاهرة .

ومن خلف هذين الكشكين والأعمدة المقامة حول الفناء ممر عرضه ٧,٥ قدماً ويدور حول الفناء وعن ارتفاع واحد كورنيش من الحشب للزخرف الذى يحمل الحائر (الزوف) الطائر المحمول على كوابيل مزخرفة .

وقد جاء فى وصف الرحالة الذين زاروا قصر الحمراء ما يفيد بأن ثمة أشجار برتقال كانت مزروعة بالفناء وأن الأشجار النباتية المتسلقة التى تغطى الواجهة على



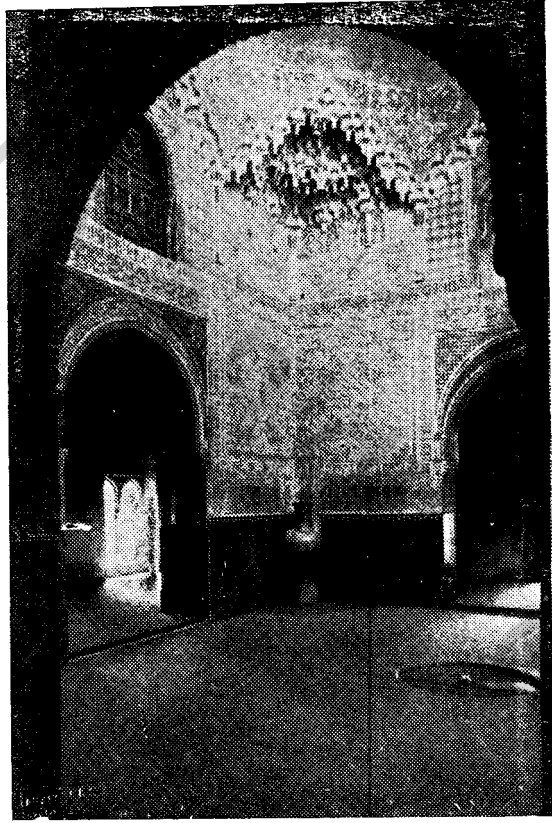
شكل ٥ — تفاصيل من العقود بهو السباع

النمو الذي نجمه في الشرق كانت مزروعة في بعض الزهريات. ولم يكن بالفناء حديقة وهناك من يذهب إلى أن ثمة بركة كانت موجودة بالفناء فضلاً عن نافورات أخرى غير التي ذكرناها .

ونجد بعد هذا المعر المزخرفة جدرانها بالعناصر المختلفة بالجلص حجرة بكل من الضلعين الكبيرين وقاعة كبيرة مفتوحة على الفناء بالضلعين الصغيرين ، تسمى إحداها حجرة بنى سراج نسبة إلى بنى سراج تلك الأسرة الغرناطية التي لعبت دوراً كبيراً في حوادث غرناطة ونكبت كما نكبت أسرة البرامكة في عهد هارون الرشيد . وهذه الحجرة رائعة في زخارفها وبجدرانها بعض أبيات من نظم ابن زمرك ففي دائرتين بالجهة اليمنى واليسرى نقرأ :

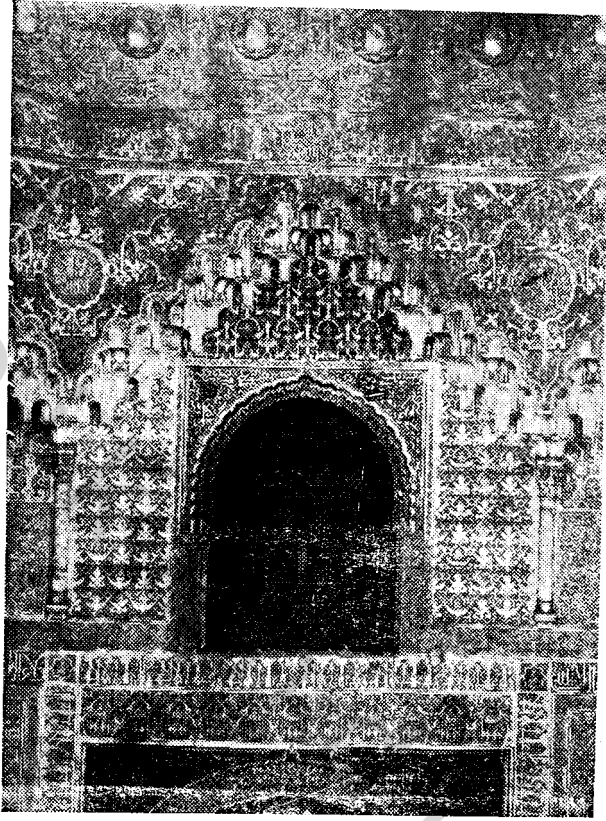
فتحسبها الأفلاك دارت قسمها تغل عموود الصبيح إذ لاح باديا
وفي الصدر :

تبیت له خنس الثريا معیذة ویصبح مثل النواسیم رواقیا
وتهوی النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك في أفق السماء جواریا



شكل ٦ — حجرة الأختين

أما حجرة الأختين (شكل ٦، ٧) فقد سميت بهذا الاسم لوجود لوحين من الرخام متشابهين وهي لا تقل حسناً وبهاء عن قاعة بني سراج ويزين جدرانها بعض أبيات من قصيدة ابن زمرك بخلاف العناصر الزخرفية الأخرى فنستطيع أن نقرأ :



شكل ٧ — حجرة الأختين

تبيت له خفس الثريا معيزة
فبين يدي مولاي قامت لخدمته
وكم من قسى فى ذراه ترفعت
به المرمر المجلد قد شف نوره
ويصبح مثل النواسيم رواقيا
ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
على عمد بالنور باتت مواليا
فيجلو من الظلماء ما كان راجيا

أما القاعتان بالضلعتين القصيرين المفتوحتين على الفناء فتختلف كل واحدة منهما
عن الأخرى من حيث التصميم وتسمى أحدهما قاعدة المقرصات والأخرى قاعة
الملوك أو المدل وهى فى غاية الفخامة والأبهة وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب وجود
رسم يمثل سلاطين بنى نصر حول مائدة الجزء الأوسط من السقف وهم فى هيئتهم

يشبهون بعض رسوم المدرسة السلجوقية في التصوير التي ازدهرت في القرن ١٣ م. بلباسهم العربية وعماهم وسمتهم السامية غير أن رسوم الحمرأ تختلف من حيث طريقة رسمها عن أسلوب المدرسة السلجوقية إذ رسمت فوق جلد بعد تغطيته بطبقة رقيقة من الجص وهي هنا أقرب إلى صناعة جلود الكتب من اللاكيه منها إلى التصوير الإسلامي وكذلك تحالفها في ألوانها . ولذا يظن أنها من عمل بعض الفنانين الأوربيين الذين كانوا موجودين في غرناطة حينئذ والذين أتيت لهم الفرصة للاطلاع على صور بعض المخطوطات العربية . ومما لا يتصل بصلة إلى التصوير الإسلامي الرسوم الموجودة على جانبي رسوم الملوك ، تلك التي تمثل صور فرسان وصيد وهي ذات أسلوب أوربي واضح.

أما العناصر الزخرفية التي نشاهدها في مختلف أنحاء هذا البهو فلا تختلف عن العناصر الزخرفية التي تزين باقي أنحاء قصر الحمرأ وهي عناصر نباتية وهندسية وخطية ، فمن العناصر النباتية نشاهد الورقة الملساء والمثلثة الشكل ذات الفص الواحد ولها كأس أو بدون الكأس والورقة المثلثة ذات الفصين وكلتاها مأخوذتان عن زخارف عصر الموحدين وكذلك نجد الورقة المشرفة الأندلسية والمفصصة ويكثر استخدامها أكثر من السابقتين اللتين كانتا مستخدمتان في عصر المرابطين ومما يلاحظ على الزخارف النباتية بصفة عامة أنها أقل غنى من زخارف القرن ١٢ الميلادي وأقل تنوعاً ، وتتكون العناصر الهندسية أساساً من اتصالات الأشكال المتعددة الأضلاع البسيطة ونجدها في الحرف والزليج وأرض العرف وبعض أجزاء من الجص وتبلغ العناصر الهندسية درجة غير عادية من التعقيد والإبداع الهندسي في التكوينات المتشابهة ونلاحظ فيها التماثل التام والخصوع للقوانين الحسابية وهي سهلة التنفيذ معقدة المظهر . وتعد الحمرأ بمثابة متحف للرسوم الهندسية المتشابهة غير أنها مملّة ؛ أما النقوش الخطية فهي إما من الخط النسخي المغربي أو الكوفي وتشتمل على أدعية وتغنيات لسلطين بنى نصر وأبيات من أشعار ابن زمرك في وصف القصر وأجزائه وكذلك عبارة شعار بنى نصر .

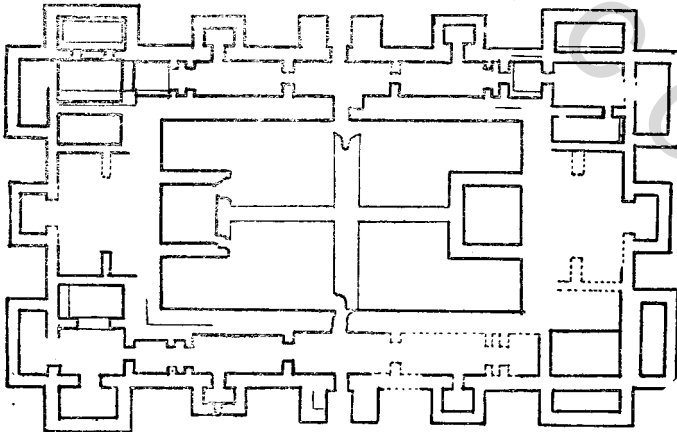
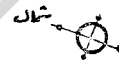
هذا وتغطي الزخارف الجصية المختلفة الأنواع ما بين نباتية وهندسية وخطية وكذلك الزليج سطوح الجدران جميعها فكأنها قد اسدل عليها ستار مزخرف بمختلف أنواع الزخارف .

وقد بلغت العناصر الزخرفية في الحمرأ وفي الفن الغرناطي عموماً درجة عالية.

من الإبداع والإتقان بالرغم من عدم تنوعها قياساً على القرون السابقة ولا غرو فإن الفن الغرناطي يمثل أقصى ما وصل إليه الفنانون المسلمون بالأندلس من درجات الإبداع وليس ذلك بغريب فإن غرناطة كانت المعقل الأخير أمام حركة الاسترداد الأسبانية وإليها التجأ الفارون من وجه الأسباب فتجمع بها فنانون من مختلف العواصم الإسلامية الأندلسية يلودون بها من اضطهاد الأسباب فكان ذلك سبباً لازدهار الفنون بها إلى درجة كبيرة ، وفي وقت قصير ولذا هناك من يدعو إلى البحث عن مصدر هذه الزخارف في قشتالة وشمال إفريقيا .

وتمت ظاهرة فريدة نلاحظها ضمن هذه العناصر الزخرفية وهي عبارة عن بعض عناصر طبيعية المظهر لا تمت بصلة إلى التقاليد الإسلامية إذ تمت إلى الأسلوب الأوربي القوطي ، وكان هذا بتأثير الجوار أو وجود بعض الفنانين الأوربيين بين المسلمين ، ولا يقتصر هذا على قصر الحمراء فقط بل غيره ممثلاً في بعض إنتاج الفن الغرناطي كالحزف ذي البريق المعدني .

والملاحظ في التخطيط العام لهذا البهو التماثل في الأوضاع بالرغم مما يوجد من اختلاف بين كل وحدة وأخرى وقد ظهر تخطيط قريب الشبه من تخطيط بهو السباع في إقليم مرثية بمحضر الكاستيخو (شكل ٨) ، وقد قيل إن هذا البهو من تصميم



شكل ٨ - تصميم الكاستيخو بفحص ممرتين

مهندس مصري يدعى ABENCENEID وواضح شدة التعريف في الاسم الأسباني الأمر الذي يجعل التعرف على الاسم العربي من الصعوبة بمكان ، وهذه هي المرة الثانية التي يذكر فيها اشتراك مهندس مصري في عمل معماري أندلسي ، إذ سبق أن ذكر لنا المسمى اسم مهندس من أهالي الإسكندرية يسمى علي بن جعفر عمل في إنشاء مدينة الزهراء . وهناك من يرى أن مصدر هذا التصميم القاهرة ، ولكن لما كانت أعمال الحفائر التي أجريت في القسطنطينية والمنازل التي لا تزال باقية إلى اليوم ، لم تعدنا بمثل واحد يتشابه مع بهو السباع فإننا نميل إلى القول بأن مصدر هذا البهو قد يكون بهو حصن متقودة وليس هناك ما يمنع في هذه الحالة من أن يكون مصممه هو المهندس المصري المشار إليه وأنه اشتق تصميمه من أمثلة موجودة بالأندلس .